كلمة ممثّل راعي الندوة السّيد الرئيس حافظ الأسد

السّيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة

عِناق الحرير وَالنحّت

السادة العلماء،

أيها الاخوة،

أيها الأصدقاء،

دعوني، بدءاً، أبارك أصابع الإنسان، فأقول إنها الإنسان كله. مثلنا القديم يمتدح أصغري هذا الكائن: قلبه ولسانه، وإنها لأمدوحة في محلها، لكنني، أنا، أخالف، فالقلب هو الحياة، وحين لا يكون قلب لا تكون حياة، اذن وجود الوجود هنا، يرتبط بهذا الخافق الصغير، كما يرتبط هذا الخافق الصغير بما يعبر عنه، أي اللسان، وكلاهما ذو وظيفة فيزيولوجية، إذا انتفت انتفيا، وتلك علامة الموت، التي تضع نهاية لهما معاً، في المعنى البيولوجي لا الابداعي الذي هو مدار ندوتنا: تدمر وطريق الحرير.

إنني مثلكم تماماً، أرفع من شأن القلب باعتباره بيت الحكمة ومستودع العاطفة، ومثلكم تماماً أعرف للسان قيمته، باعتباره ترجمان القلب، في حكمته وعاطفته معاً، لكن الإنسان، هذا الكائن الشهبي النادر والمتفوق، لا يبدع بقلبه ولسانه دون أصابعه، فالأصابع، في المعطى الأخير، هي التي مكنت الإنسان من إبداع كل ما أبدع، وما سيبدع في مدى الدهر الطويل الطويل إلى ما لا نهاية، أو إلى نهاية يقصر عنها مدى الظن حتى في أبعد ما يترامى الخيال والتخييل عبر المكان والزمان معاً.

وفي هذه البقعة الصغيرة جغرافياً التي ندعوها تدمر، تنداح لنا في حكاية التاريخ، مسافات في الأبعاد، تربط بين الصين وروما، وبين بلاد الفرس وبلاد اليونان، وبين الشرق والغرب، من طوكيو بلد الشمس إلى القدس بلد النبوات، وتمدنا، زمنياً برؤية تتجاوز الزمن فهي قبله وبعده على السواء، وفي وسع المرء في ليلة صيف قمراء أن يرى إلى آثار تدمر، في ارتفاع قاماتها، واستطالات ظلالها، وبهاء توزعاتها، وجلال رؤاها، ومهابة عظمتها، ما يجعل الزائر ينصرف عن شؤون حاضره إلى شؤون ماضيه، وما يحمل السائح على أن يتملى الأرض التدمرية مرات، في حين يتملى القبة الزرقاء فوقه مرة، فهذه في المتناول حيثما كنا، وتلك تدمر هي حيث نكون، أو نعيش فرادة هنيهات من الزمن.

صمت الصحراء، أيها المنتدون الأعزاء هو كلامها، وإذ يصير الصمت كلاماً، فتلك أسطورة أو معجزة لكن الصحراء التدمرية اجترحت في السكينة التي تلتفع بعباءتها، الأسطورة والمعجزة، ثم يترجع ما بينهما صدى

التاريخ، يروي في هدأة الليل أو صخب النهار، قصة حضارة تضع الأنجم في الكف فإذا هي درار، والحباحب في الفلاة فإذا هي نيازك البيداء، والسراب في وهم الظمأى فإذا هو الماء ولا ماء.

قال شاعرنا الجواهري: قف بالمعرة. وأنا أقول مع النابغة الذبياني: قف بتدمر. هناك حكيم أقام الدنيا وأقعدها، وهنا حكمة أقامت الدنيا ولم تقعدها بعد، فالصحائف على روعتها يستنطقها الكلم، والمعابد، في قدمها، يستنطقها القدم، والعين ترى والأذن تسمع والقلب يخشع والأعالي تتنزل، ومن ذهبوا مع ريح الفناء يستعيدهم البقاء، فاذا نحن وهم وجهاً لوجه، كأنما سوق تدمر بأعمدتها سوق الحشر، وكأنما تماثيل تدمر في نطقها يوم البعث، وكأنما القبور نشرت والجحافل التأمت وأذينة يتقدم الركب وزنوبيا من شرفة عصرها تطل على عصرنا، ونسيج الزمن، في خيطه الحريري الذي لا يبلى، قد صار نسيجاً هو وشاح وغلالة ورداء عروس من الجن تزف إلىٰ عريس من الجن، في غبوق الأماسي أو صبوح الأسحار.

لقد مر طريق الحرير من هنا، وكان الحرير في الأصل دودة، ثم شرنقة، ثم استبرقا، والأصابع هي التي، في ابداع ابداعها غزلت الخيوط ونسجتها. ثم طلعت الصين على العالم القديم باكتشافها العجيب، محتفظة بالسر لنفسها، واضطر هذا العالم القديم إلى استيراد الحرير المهفهف، لونا ونعومة وملاسة وحلية للعنق والجذع والفرع والأطراف، فاختار طريقه عبر الجبال والوديان والسهوب، ووجد في تدمر مركزاً، كما وجد فيها مراحاً ومستراحاً، وأدرك أنها، كنقطة الوسط بين خطين متعرجين تارة، ومستقيمين طوراً، لكنها النقطة التي تختصر الطرق في طريق، ومن هنا جاءت التسمية: طريق الحرير، ومن بعدها كان حكم زنوبيا وأذينة، حكماً عربي الوجه واليد واللسان، وقامت الأصابع بدورها، كرة أخرى لا في الغزل بل في النحت، وخلفت لنا كل هذه الأوابد الشامخات.

أعجوبتان في أعجوبة: الحرير والنحت، ونحن في هذه الندوة نسلط الضوء عليهما معاً، نتحدث؟ لا، تتحدثون ونصغي، مستمتعين بقصة الطريق التي هي الأطول في الطرق، وآثار تدمر التي هي الأعظم في الآثار ونرجع مع التاريخ إلى وراء، ومعه نتقدم، عندلة عندلة، ونتوقف محطة محطة، وفي كل نقلة وكل محطة، يتكلم الأساتذة المختصون، فنسمع ونعي ونفهم، ونضع في الشمس ما كان في الظلمة، لأننا في سورية بلد الحضارات وبقيادة الرئيس حافظ الأسد، راعي الحضارة تنقيباً والثقافة نشراً قد أخذنا على عاتقنا، كواجب وطني وقومي وانساني، أن نسهم وبكل ما نملك، بل بأكثر ما نملك، بإقامة ندوات مماثلة، في كل شأن حضاري وثقافي من شؤوننا، ما دمنا في العمق من قناعتنا، نؤمن أن الدولة حضارية، ثقافية، فكرية، تكون أو لا تكون، ونحن قد قررنا أن نكون، وسنكون، وتلك هي الإرادة المتفائلة، التي تنتصر، مهما يطل الزمن، على تشاؤم العقل، في أي منحى كان هذا التشاؤم الذي هو غاشية، تسوقها الريح التي نسوقها بدورنا.

اذن لا اقتراب من التاريخ، وفي وسعنا هذا، ولا اجتراء على الاختصاصات، ويمكننا ذلك. لقد أتقنا هذا السلوك المتواضع الذي علمنا إياه معلمان: حافظ الأسد والقرن العشرون، وقد أفدنا من علمهما فوائد جلى، عندما جعلنا من دمشق مركز اشعاع فكري له في التبادل الحضاري شوط، والتفاعل الثقافي شوط، وتعميم المعرفة والوعي أشواط، بمثل ما جعلنا من دمشق مركز صمود نضالي، على جدران قلعتها الحصينة ترتطم قذائف العدوان فتتناثر وترتد، ومن منافذها الحربية نرمي هذا العدوان في المقتل منه، فاذا جنح إلى السلم جنحنا، واذا أرادها مباحثات للسلام مددنا له فيها حبلا طويلا، بعيدا عن لعبة الذكاء التي لا نمارسها على أحد، ولا نسمح لاحد أن يمارسها علينا، وفي منأى عن المناورة والخديعة، هذه التي تلجأ إليها اسرائيل، فنعرفها ونبطلها، وكلما عملت على استجرارنا إلى الفروع رددناها إلى الأصل: الارض مقابل السلام.

لقد كان خطاب الرئيس الأسد في القسم على الولاية الجديدة واضحا كحزمة ضوء، صريحا كقلب على كف، محددا كالكلمة بين الفاصلة والفاصلة، جهيرا كرنين جرس من نحاس، وقد أثار اهتمام العالم، وأشبعه

هذا العالم درسا وتحليلا، فلم يبق بعده مجال للاختبار وراء الإصبع، أو الادعاء بأننا نعلن غير ما نضمر، أو الزعم بأننا رافضة سلام، وأن مشاركتنا في مباحثاته ضرب من التكتيك. إننا في طلب السلام استراتيجيون، نريده حقاً وصدقاً، ولكن نريده عادلاً، فيه تحرير للأرض، واسترداد للحقوق، وفيه تنفيذ لمقررات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، على أساس القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨، وهذا كله ليس من باب المراوغة، أو الخشية، أو التردد، أو سوء التقدير، وليس كذلك من باب وضع الأوراق تحت طاولة المباحثات، فأوراقنا، في كل حواراتنا ومباحثاتنا، ومع كل الدول، صديقة وغير صديقة، عربية وأجنبية، فوق الطاولة تماماً وهذا ما أثبتناه بالفعل لا بالقول، وما أخذ به الرأي العام العالمي يثق به ويقتنع بصدقه، وهذا ايضا، ما أحرج اسرائيل التي لا تريد السلام، وترفضه رفضاً، وتماطل فيه كسباً للوقت، دون أن تدرك أن الوقت معنا، وأننا في طلب تسوية النزاع العربي الاسرائيلي غير مستعجلين، فالمهم في نظرنا، أن تكون التسوية عادلة، أو تبقى القضية العربية حية ما حيينا.

لقد كان علي، أنا التي أولاني الرئيس الأسد شرف النيابة عنه كراع لهذه الندوة، أن أرحب بكم في مستهل هذه الكلمة، لكني آثرت أن اشرح موقفه كرجل قلم ورجل سيف قبل أن أنقل تحياته وهي غالية في العطر، ففي القلم خط هذا العارف بيمناه أن « الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية » في سجل افتتاح مكتبة الأسد قبل أعوام، وفي السيف بتاراً كان هذا القائد اليعربي فارساً عرفته حرب تشرين التحريرية، كما عرفته الوقائع قبلها وبعدها، شجاعاً له في الإقدام شكيمة لا تلين وفي الوثوب على الأذى قفزة لا يعتورها تردد، وفي قول الحق نبذ للغمغمة والجمجمة، وفي الحوار نفس صمودي، فيه براعة القادة البارعين الذين تحفظ اسماءهم سجلات الأمم.

القلب هو القلب، واللسان هو اللسان، والأصابع هي الأصابع، وفي افتتاح هذه الندوة أُعطي للقلب أن يعبر بحرارة عن ترحيبه بكم، واللسان أن يشكركم على تلبيتكم الدعوة وتجشم مشاق السفر، وللأصابع التي لا إبداع دونها، أن تبدع من خلالكم، ففي الأبحاث التي ستلقى، كان الحرف رسما بالأصابع لا نقشا بالأزاميل، وفي الحالتين، كانت اليد هي الوسيلة، وهي النبيلة، وهي القادرة، في المصافحة الودية لكل منكم، أن تنقل، كالسلك الكهربائي، ما في النفس من مشاعر عرفان بالجميل، خالصاً ومخلصاً في آن.

قف بالمعرة قال شاعرنا الجواهري، وقف بتدمر أقول أنا، والوقفتان لهما غاية واحدة، أن نتملى حكمة الماضي، ونجلوها، وننفض عنها غبار السنين، كي تدخل بنا، وندخل معها، هيكل معبد بل، خشعاً، على نحو يليق بعظمة هذا المعبد الذي هو والخلود صنوان، وكي نقرأ الحجر ونستنطقه، مآثر باقيات، بعضها للنحت وزخارفه، وبعضها للحرير وطريقه، وبعضها الثالث للفن الذي على هذه الأرض استقام، ومن جوفها استخرج، وفي متاحفها ومعابدها وشوارعها ومدافنها ومدرجها استعلن، هاتفا بالزمن السرمدي: أنا وأنت الباقيان، وكل ما عدانا إلى زوال.

كلمة استهلال وبعدها نقطة على السطر، ثم أنتم، أيها العلماء الأجلاء، وما في المتن من شيق القول، بعد أن سمحت لنفسي أن أخط على الهامش تحية الترحيب، وما تنطوي عليه من تقدير وتكريم كبيرين.